قصة اجتماعية

النغم المبتور

بقلم سمير . م

على ساحل البحر ، حيث تتوسد الشاطئ إحدى المدن الساحلية المصرية . وفى هجعة الليل حيث المدينة وسنانة ، وحيث أهلها ينعمون بنوم هادئ لذيذ ، تاركين للغد كل ما يتمخض عنه الغد ، بدأ " عبد العظيم " ينفض عن عينه ثوب الكرى ، وينظر إلى البحر الهادئ الساكن نظرة المحب العاشق أو نظرة الابن البار لأمه العطوف الحانية ، والحق أن " عبد العظيم " كان مدينا للبحر دينا لن ينساه فى حياته حتى لو تعمد أن ينسى. فلم يقتصر فضل البحر على عبد العظيم فقط ، وإنما فضله يغمر والديه وجده وقد يتصل الفضل بسلالته كلها أو جلها ؛ فوالد عبدالعظيم كان يشتغل بصيد السمك من البحر وارثا المهنة عن والده ، ولا يزال المترددون على شادر السمك فى تلك المدينة يذكرون عم "مسعود" الصياد، ويذكرون كيف كانت حلقة السمك تلتمش كل يوم على يدى عم مسعود .

وكان للفتى عبد العظيم ولع كبير واستعداد طبيعى للغناء ، وقد يكون للمدينة وما يحيط بها من مفاتن الطبيعة الساحرة الدافع الأكبر لتنمية مواهب الفتى وتقوية استعداده ، إذ كان يعيش فى مدينته سعيدا خالى البال يملأ شاطئ البحر بنغماته الساحرة الفاتنة ، قانعا بالقروش الستة التى كان يتناولها من المعلم " سفروت " الصياد صاحب الزورق الذى كان يساعده فى صيد السمك ليلا ، فكان ينام النهار ويستيقظ الليل ليباشر عمله مع الصياد، وكان الصياد معجبا بمساعدة الفتى ، ويشعر بحنين وشوق كلما غاب عنه فيحرم من صوته العذب ونغماته الرقيقة .

فالفتى فنان بالسليقة يجمع فى أنغامه بين روح الطبيعة وروحه ، ويعبر بصوته عن شكواه وحنينه ، كما يعبر عن شكوى البحر فى هدوئه عند هبوب الرياح ، وعن شكوى الرياح وأنينها عند هبوبها فى رحاب السماء ، وكانت الطيور تصغى إلى أناشيده وتتلقنها منه ، فكان البلبل يقلدها فى تغاريده ليلا ، والقبرة عند بزوغ الفجر .

طار صيت الفتى على طول الساحل فكان عمال الساحل يقصدون الشاطئ ليلا يستمعون إلى الفتى الموهوب فينسون آلامهم المعيشية وهم يستمعون إلى الصوت الحنون ولو إلى حين ما . وكان أشد هؤلاء افتتانا وحرصا على سماع الفتى فتاة حلوة القسمات ناضجة الأنوثة غضة الاهاب ليس لها فى الحياة من ناصر أو معين سوى أمها التى تحترف طحن الغلال فتكسب من يومها قروشا تضيفها إلى ايراد ابنتها من بيع البرتقال على شاطئ البحر للعمال والصناع فيتغلبا بها على ضروريات الحياة .

شعرت الفتاة وهى فى ترددها على الشاطئ بدافع خفى يدفعها نحو الفتى صائد السمك ، وكان صوته الحنون الذى يحوى فى ثناياه أسى ولوعة يجدان صداهما فى نفس الفتاة المحرومة من عطف الحياة ونعيمها فيتغلغل فى نفسها شعور بالتعزية والاحساس بأن فى الحياة من يشاركها ألمها وشقوتها ، وكنتيجة طبيعية لهذه العاطفة التى سرعان ماوجدت استجابة لها من ناحية الفتى الذى عثر فى فتاته ماهمة تفتح أمام موهبته مغاليق الروح وتستخرج من قرارة نفسه كنوز الفن ، تعاهد الفتى والفتاة أن يكونا لبعضهما حتى الموت وأن الايام لن تستطيع أن تفرق بينهما أو تنال من عهدهما .

واهتدى الفتى أخيرا إلى طريقة تزيد من إيراده وتنقذه من ورطته ، فكان فى وقت فراغه يصعد على ظهر البواخر التى ترسو فى الميناء فيمارس أمام الأجانب بعض ألاعيب الحواة والشعوذة التى تعلمها من زملائه فى البحر ، فكان يظفر منهم بقروش يسيرة أمكنه أن يجمعها فصارت مبلغا لا بأس به دفنه فى جهة معلومة من رمال الشاطئ .

شعر الفتى بعد أن تعاهد مع فتاته أنه قد تعرض لمسئولية جديدة عليه ، لابد له أن يتحملها مهما كان الأمر ، فهو فى حاجة إلى زيادة إيراده حتى يمكنه أن يوفر جزءا استعدادا للزواج ومطالبه ، ويعطى الباقى لوالدته العجوز كى تضيفه إلى ربحها البسيط من بيع الجرجير والليمون والفجل وتنفق منه على أفراد الأسرة المكونة منها ومن أولادها الثلاثة وأصغرهم عبد العظيم ، كان الاخوان الكبيران لاعمل لهم فى الحياة إلا الأكل والنوم والاعتداء على كسب أمهما وعبد العظيم ليدفعا منه ثمن النارجيلة ولعب الورق فى المقهى .

وفى ليلتنا هذه التى بدأت فيها حوادث هذه القصة ، وبينما كان عبد العظيم يتجه الى زورق عم "سفروت" الصياد ليستأنفا عملهما فى صيد السمك بمصاحبة صوت عبد العظيم الطروب ، رأى الفتى مصباحا يتجه حامله صوب الزورق ، وهو يريق ضوءا مضطربا يرشد حامله الى الطريق ، فتأمل عبد العظيم المصباح برهة ، فظنه لأحد النوتية الذين يعملون بالليل ، وهم يستأنف المسير ، إذا بصوت خافت مضطرب تخالطه نبرة من حزن مرير يصيح .

— عبد العظيم ... عبد العظيم ...

— من ... أمينه ؟

— أجل ... أين أنت ؟

فتقدم منها الفتى وأخذ بيدها المرتعشة وهو ينظر اليها نظرة المستطلع لأمرها المتألم لها ، ولما رأى الفتاة تعانى رعدة تملكتها من فرعها إلى أخمص قدميها أجلسها على صخرة من صخور الشاطئ وسألها عما جاء بها فى مثل هذا الوقت ؟ وبعد برهة أجهشت الفتاة بالبكاء المرير واستطاع الفتى أن يفهم من كلماتها المختلطة أنها بينما كانت راجعة الى البيت شعرت بانقباض شديد لا تدرى سببه ، ثم سرعان ما انجابت لها الحقيقة عندما ولجت بيتها ورات أمها ملقاة على الأرض جثة هامدة وليس بجانبها من يغمض عينها ساعة الموت أو يسقيها جرعة من ماء .

دمعت عينا الفتى لما نال فتاته وتقدم منها فى لوعة ثائر صامت يطلب اليها أن تبكى ، فإن انحباس دموعها فى مآقيها لأشد خطرا من هطولها . ثم تركها فى غيبوبة الألم برهة عاد اليها بعدها وهو يحمل المبلغ المدخر كى يرافقها الى حيث ترقد أمها التعسة .

وبعد أن قام الفتى بواجبات الجناز والدفن اصطحب الفتاة الى أمه لتجعل منها ابنة ولتتخذها هى أما بعد أن عدمت الأم وفقدت آخر الأهل .

ولم يعد هناك ثمت ما يدعو الى تأجيل الزواج ، فسرعان ما تم بعد أن انتهت أيام الحداد ، فأقامت الفتاة فى بيت أسرة عبد العظيم ، وأبى الفتى أن تعود زوجته الى الاشتغال ببيع البرتقال على الشاطئ فكفاهم ما يكتسب هو وأمه ليقضى حوائج الأسرة ويقوم بأودها .

وقد لا يعرف عبد العظيم حتى الساعة أن زوجته كانت تساعد أمه خفية فى بيع الفجل والجرجير عندما تطلب منها الأم ذلك ، فقد كانت الفتاة تحرص على ألا يعرف زوجها هذا الأمر فيغضب من أمه وما يتبع هذا الغضب من أمور .

ظلت السفينة تسير فى طريقها حاملة أسرة عبد العظيم والريح لا بأس بها والجو معتدل حتى ثارت الزوابع وعصفت الرياح فانصدعت الدفة واختل توازن السفينة ، وكان ذلك بينما عبد العظيم يعتلى سارية الزورق ليطوى "القلع" اذ انزلقت قدمه فوقع على سطح الزورق وهو يعانى ألما لا يطاق فى ساقه اليمنى ، ولم يدر الفتى نفسه شيئا من ذلك الا بعد أن استفاق فى المستشفى بعد أيام وهو طريح سرير من أسرتها .

ويعجزنا أن نصور شعور الفتى ربيب البحر وابن الطبيعة القوى وهو يرى نفسه فى إحدى الليالى طريحا فى فراش يصرخ كل ما حوله بكلمة "مرض"، ولم يفهم الفتى بادئ بدء حقيقة ما حدث له ، ولكنه عند ما استمد من ضعفه قوة وتحامل على نفسه ليقف على قدميه ويطرح عنه ثوب المرض لم يشعر الا وقدماه تهويان الى الأرض فينكفئ على وجهه وقد صرخت فى أذنيه الحقيقة المروعة . لقد قطعت ساقه ! ! !

أيمكن هذا ؟ أمن المعقول أن ينقلب الصحيح ناقصا ، والسليم معتلا ، والقوى ضعيفا ؟ أجل ممكن ، وهكذا شاءت الأقدار .

ظل عبد العظيم فى إغمائه مطروحا على الأرض بعد أن تبلجت له الحقيقة القاسية ما يقرب من الساعتين حتى طلع الفجر، وانتشر المرضون يطمئنون على المرضى فى المستشفى واذا بهم يعثرون على الفتى وهو فى رقدته فيحملونه الى سريره ، ويعملون على تنبيهه حتى اذا أفاق ظل يتفرس فى وجوههم بذهول يكاد يدنيه من الجنون ، وهم يجاهدون بكلماتهم المواسية أن يهونوا من خطبه ويخففوا من مصابه ، ولكن ماذا تجدى الكلمات نفعا أمام هول الواقع .

* * *

بارح الفتى المستشفى وهو يتوكأ بيد على عصى هى فى الحقيقة فرع جاف لإحدى الأشجار، وبيده الأخرى يتحامل على زوجته المخلصة أمينة التى أبت بعد أن ألمت بمصاب زوجها أن تبارح باب المستشفى أكثر أوقاتها ، انتظارا لخروج زوجها وارتقابا لأخباره . ويتصادف أن تكون الزيارات ممنوعة للمرضى فتعذر عليها أن تزور زوجها الطريح ، ولم تأبه لنصح المرضين ولا الأطباء بالذهاب الى منزلها ولتطمئن على سلامة زوجها . ولكنها ظلت أكثر الأيام بجوار المستشفى تتطلع الى نوافذها راجية أن تحظى برؤية زوجها حتى اذا نال منها التعب آبت الى منزلها بقلب كسير ونفس متوجعة .

وعندما علمت الزوجة بما حل بزوجها بعد أن رأته يغادر المستشفى وهو يجر خلفه ساقا واحدة، لم يظهر عليها أثر الصدمة التى نزلت بها فزلزلت كيانها ، ولكنها تحملتها بصبر وشجاعة ، ولم يبد عليها أنها قد ألقت بالا للمصاب ، فكانت تتم وهما فى طريقهما بعبارات التشجيع والمواساة ، بينما كان قلبها يتفتت ألما ، وكبدها يذوب مرارة .

وفى المنزل استقر بالفتى المقام حيث اجتمع حوله نفر من الصحاب والزملاء والأقارب ولكن سرعان ما انفضوا من حوله بعد أن جاد كل منهم بما فتح الله عليه به من العبارات الملائمة للموقف .

لم تمض أيام قلائل على استقرار الفتى بالمنزل حتى برمت به أمه بل وصارحته من أين تطعمه هو وزوجه ؟ فحز الألم فى نفس الفتى ، ولكن الزوجة المخلصة لم تدعه يتألم طويلا ففى اليوم التالى خرجت فى البكور قبل أن يصحو زوجها وذهبت الى صاحب المطحن الذى كانت تعمل فيه أمها ورجته أن يقبلها فى مكان أمها ، وظلت تستدر عطف الرجل وشفقته حتى قبل وعين لها أربعة قروش فى اليوم فرحت بها الزوجة الشقية وحملتها آخر اليوم إلى والدة زوجها ، بينما كان الزوج يتقطع أسى ويتمزق ألما لاضطرار زوجته الى الخروج للحصول على قوته وقوتها .

وفى ذات يوم أمكنه أن يتوكأ على عصا ويذهب الى إحدى الجمعيات الخيرية يسألها أن تساعده الجماعة فى إيجاد عمل له ، فعينته الجمعية مؤذنا فى أحد المساجد التابعة لها لقاء جنيه فى الشهر ، فكان الفتى يقوم فى الفجر ليؤذن للصلاة ، فيدوى صوته فى المدينة رائعا ساحرا يحوى الى جمال الصوت جلال المعنى وعظمة الدعوة ، فكان الناس يحدون فى المؤذن الجديد داعيا يهيب بهم الى اللجوء الى واحة الدين ، فتصل دعوته الى أعماقهم وهى تهتف بهم فى الكلمتين الصغيرتين فى مبناهما الكبيرتين فى معناهما " الله أكبر " فتجد قلوبا متفتحة ، وآذانا صاغية ، وعقولا واعيـة .

وكان عمله كمؤذن فى المسجد فرصـة لاتصال الناس به واستطلاعهم أمره وعطفهم عليه ، فمنهم من كان يساعده بما يجود به ، ومنهم من كان يتطوع بنصحه بامتهان مهنة توافقه ، ومنهم من يعرض عليه أن يحيى له ليلة زفاف لقاء عشرة قروش أو ليلة مأتم لقاء خمسة قروش .

وهنا بدأ عبد العظيم يتمتع بصيت لا بأس به كمغن ومقرئ حتى أن أحد وجهاء المدينة سمع به يوما فدعاه لإحياء ليلة مرور أسبوع على مولد طفله نقده فيها خمسين قرشا ، لم يكن الفتى يحلم بها أجرا فى يومه . وقد حدث زميلا له كان يصطفيه من صائدى السمك بما كسبه من الحفلة ، فشجعه زميله وقال له إنه يكسب أكثر لو نزح الى القاهرة ، ففيها محطة الإذاعة ، وهى تشجع أصحاب الأصوات الحسنة وتنمى فيهم مواهبهم وتقوى استعدادهم .

وبعد تردد يسير اختمرت فى رأس عبد العظيم فكرة النزوح الى القاهرة ليجرب حظه فيها عسى أن يبتسم له الحظ بعد طول عبوس .

وشاءت المقادير أن تساعده على تحقيق رغبته فأمكنه أن يدخر مبلغا يمكنه وزوجه من السفر الى القاهرة ، فما كادت أصابعه تقبض على المبلغ حتى هرع الى زوجته مصطحبا إياها صوب المحطة حيث ابتاع تذكرتين فى القطار المسافر الى القاهرة .

وفى محطة القاهرة وقف القطار ليضم الى القاهريين وافدين يحدوهما الرجاء ويدفعهما الأمل ، ولم يكن لعبد العظيم فى القاهرة أهل أو معارف ، ولم يفكر ساعة أن امتطى القطار من مدينته فى أى مكان يذهب عند وصوله الى القاهرة . لذلك اصطدم بهذه المشكلة الجديدة أين يذهب ، وكيف يسير ؟

جلس الزوجان فى ميدان المحطة على افريز الشارع أمام إحدى المقاهى : الزوج يتوكأ على ساق خشبية صنعها هو بنفسه من أخشاب الصناديق والأشجار فجاءت غير مهذبة وان كانت تفى بالغرض المطلوب ، وكان يرتدى جلبابا قذرا فوقه سترة ممزقة وطربوشا باليا . أما الزوجة فكانت تجرجر خلفها أسمالا بالية تسترها بملاءة ليس فيها شبر واحد سليم وتنتعل نعلا تبرز منه أصابع قدميها الخمسة .

كانا فى جلستهما يمثلان البؤس والفاقة بأجلى معانيهما ، فعلى وجه الزوج تلوح دلائل الحيرة ، وفى عينى الزوجة يبرق بريق الحرمان وجور الزمان .

لاحظ جلستهما واحد ممن يجلسون فى المقهى ، فتملكه الفضول ، فانتقل بكرسيه الى جانبهما وسألهما لماذا يجلسان هكذا ، فقص عليه الفتى قصته ، فتأثر الشاب بقصتهما خصوصا بعد أن رفع عبد العظيم عقيرته بالغناء ليثبت للشاب صدق قوله ، فدعاهما الشاب واسمه احمد الى تمضية الليلة فى منزله حتى إذا أصبح الصباح وجد لهما مخرجا ، فكان العرض هو كل ما يرومه عبد العظيم ، فسرعان ما انقاد هو وزوجته الى أحمد الذى اصطحبهما إلى بيته حيث يعيش مع أمه العجوز .

وفى صباح اليوم التالى اصطحب أحمد افندى الفتى عبد العظيم إلى أحد أقربائه من ذوى المكانة العالية كى يحصل منه على توصية لمحطة الاذاعة ترشح عبد العظيم للعمل فيها ، ولسوء الحظ وجدا الرجل متغيبا فى ضيعته فاحتارا ماذا يفعلان ؟

ويتعاذف أن كان مسيرهما فى طريق محطة الإذاعة ، فسأل الفتى عبد العظيم وهو الوافد الجديد على المدينة عم يكون البناء الكبير الذى إلى يمينه ، فالتفت أحمد وقال له : إنه . . . . محطة الإذاعة .

دوت هاتان الكلمتان فى رأس عبد العظيم وتمثل فيهما أمله الذى أتى ليحققه وحياته التى سافر ليؤسسها ، وزوجته التى هاجر ليسعدها .

لم يشعر أحمد افندى إلا وعبد العظيم ينعطف إلى باب المحطة فيلجه كى يصدمه بواب المحطة سائلا : إلى أين ؟

— إلى مدير المحطة

— ألديك موعد معه ؟

— كلا وانما أرسلنى له أحد الباشوات بخطاب اليه

— إذن اعطنى الخطاب وسأرسله وسيطلبك بعد ذلك

— كلا سأعطيه الخطاب بنفسى .

فلم يجد البواب بدا من الذهاب إلى مدير المحطة و إخباره بأمر الزائر الغريب . وقد يكون وصف البواب لحال الزائر ومظهره أثر فى نفس المدير دعاه لسماحه له بالدخول، وقد يكون لتوصية الباشا الدافع الأكبر، على كل فقد دخل عبد العظيم إلى غرفة المدير الفخمة يتأملها بإعجاب وافتتان وهو يتوكأ على رجله الخشبية التى تحدث صوتا منتظما كلما خطا خطوة .

— سأله المدير .

— أين توصية الباشا .

— ليس عندى توصيات من أى مخلوق ... ولكن عندى توصية من الخالق .

أعجب المدير باجابة الفتى البائس فسأله الأمر فقصه عليه، فقدم المدير اليه جنيها ودعاه لزيارته فى اليوم التالى ليمتحن صوته ، فانحنى الشاب على يد المدير يقبلها وقد أغرورقت عيناه بالدموع ، ولم ينس وهو خارج أن يطلب من المدير أن ينبه على البواب كى يسمح له بالدخول فى اليوم التالى .

* * *

وفى اليوم التالى بدأ عهد جديد يحتوى المطرب الناشئ " عبد العظيم مسعود" فما لبث مدير المحطة أن وجد فى الفتى جوهرا نادرا، ولكنه خام يحتاج إلى الصقل والتهذيب حتى يصير آية فنية وتحفة نادرة ، فأجرى له مرتبا شهريا حتى يتم الفتى دور التعليم والتلقين وأعطاه رداء كاملا من أرديته، وكان الفتى على شىء كبير من الذكاء فسرعان ما تعلم العزف على "العود" وتمييز النغمات وضبط الحركات والإيقاع ، ثم ما لبث أن تقدم لعمل " البروفة " النهائية فنجح نجاحا باهرا أمكن للمحطة بعده أن تعلن عن عثورها على مطرب نادر سيخلب الألباب ويهز الأفئدة، وكانت الدعاية التى سبقت الفتى لفتت أنظار الجمهور فظل يترقب يوم إذاعته بصبر فارغ حتى حل اليوم المرتقب .

ولن نتحدث عن نجاح المطرب الجديد فكفى أن مدير المحطة بعد أن سمعه بكى، أجل بكى من روعة الأداء و جمال الصوت وسحر التغريد .

ولن نتحدث أيضا عن زوجة المطرب الجديد وهى تستمع إلى راديو المقهى المجاور للمنزل الذى استأجرا غرفة منه، أثاثها حشية ووسادة وغطاء، لقد اغرورقت عيناها هى أيضا بالدموع بعد أن استمعت الى أكف جلساء المقهى وهى تكاد تتقطع من التصفيق وهم لفرط تأثرهم بالصوت البديع يكادون يخرجون عن شعورهم فيقبلون آلة الراديو إعجابا وافتتانا .

نجح المطرب " عبد العظيم مسعود " وظل يرقى من نجاح إلى نجاح و ينتقل من مجد إلى مجد ومن انتصار إلى آخر حتى شعر المطربون القدماء بمنافس قوى أصبح ينازع كبيرهم مكانته و يكاد يقضى عليه ، ولكن ماذا يفعلون، انها هبة الله، ولن نستطيع مهما أوتينا من قوة أن نمنعها عن أحد .

أصبح المطرب يسكن مع زوجه شقة فخمة أثثها بأثاث أفخم، وأمكنه أن يبتاع سيارة جميلة يستعملها فى غدواته وروحاته، وصار الموسيقيون الكبار يتمنون لو ظفروا بالانضمام الى فرقته ، حتى صارت فرقته أعظم فرقة موسيقية فى القطر ، وحتى صار اسمه أشهر من الشهرة نفسها ، وكان أصحاب الحوانيت يسمون حوانيتهم باسمه وازياءهم يلقبه " المطرب عبد العظيم مسعود ".

تلألأ هذا الاسم فى طول البلاد وعرضها ، وسرى سحره الى البلدان الشقيقة فصارت العقود تترى عليه والحفلات فى مختلف البلاد تنهال من حواليه ، والحظ ما زال يواتيه ، ونجمه ما زال فى صعود .

لم ينس عبد العظيم أن يرسل لأسرته مبلغا كل شهر يستعينون به على قضاء حوائجهم، وكذلك لم ينس أن يقول لزوجته إن طبيعة مهنته تتطلب أن يوهم الناس أنه أعزب حتى يجد سوقا أروج ، فما كان من الزوجة المحبة لخير زوجها الا أن توافق وتدعى أمام زواره ساعة أنها أخته وساعة أخرى أنها خادمته .

وكان المطرب كثيرا ما يصطحب أو يستقبل فى منزله سيدات وآنسات يزعم لزوجته أنهن يدعونه لحفلات، وكانت المسكينة تصدق وقد يتصادف ألا يكون بالمنزل خدم فتتقدم للزوار القهوة باعتبارها خادمة .

وفى يوم من الأيام تعرف المطرب الكبير وهو فى أوج مجده و بين نخبة من أصدقائه الذين التفوا حوله من عليـة القوم وأرباب المناصب وأولاد الأسر، تعرف المطرب بفتاة لعوب أظهرت له من صنوف الإغراء ما جعله يؤمن بأنها تحبه ، فانزلق فى تيارها حتى صعب عليه أن يمنع نفسه من الانحدار ، وتمكنت الفتاة من أن تنتزع منه وعدا بالزواج

فى ساعة من ساعات النشوة الحالمة ، وكانت تستنجزه وعده وهو فى حيرة وتفكير دائم عمّ يفعله بزوجته التى صارحته منذ أشهر بأنها تحمل جنينا .

وجاءه المخرج اذ قارب زوجته الوضع ، فأشار عليها أن تلد فى بلدته عند والدته حيث تجد من يعنى بها ، فانخدعت الساذجة وسافرت تاركة زوجها ليبنى على الفتاة اللعوب التى سلبته العقل وشلت منه التفكير .

وفوجئ سكان الحى الذى يسكنه المطرب بأثاث جارهم ينقل من المنزل الى جهة مجهولة فتساءلوا : ما السبب ، فتطوع البعض ممن عرفوا حقيقة الموضوع باخبارهم بأن المطرب سيتزوج ولذلك فسينتقل الى مسكن أكبر ، وقد سافرت " شقيقته " الى بلدته لتحضر مع أقاربه .

تزوج المطرب من فتاته وظل فى نشوة الزواج متناسيا زوجته الساذجة "أمينه" التى تحملت معه صنوف الشقاء والحرمان والتى وضعت مولودة فرحت بها وخيل اليها أن نجما جديدا أشرق فى سماء سعادتها وربطها بزوجها برباط أبدى ، ولكن الزوج الغافل لا يدرى شيئا من كل هذا ، بل هو سادر فى غيبوبته التى هيأتها له زوجته الجديدة من مجلس الصاخب وارتياد المجتمعات وغشيان الحفلات فكانا لا يرجعان الى بيتهما إلا قبل شروق الشمس بقليل ، وكان حتما عليه أن يجارى المجتمع فى تقاليده ودستوره فهو يحتسى الخمر ويدخن المحظورات ويرتكب كل ما يفعله المجتمع الصاخب من بدع ومنكرات .

وفى ذات يوم رجعت الزوجة تحمل طفلتها المولودة فلم تجد من يستقبلها فى المحطة برغم إرسالها ما يفيد ذلك ، فظنت أنه ربما قد نسى الموعد أو حدث ما أخره ، فيممت شطر المنزل ودقت جرس الباب ، ففتح لها خادم لم تره من قبل متسائلا ، فارتبكت أمينة لما لاحظته على المنزل من تغيير ظاهر وسألت : أليس هذا المنزل للأستاذ عبد العظيم مسعود فرد عليها الخادم قائلا : إن المطرب قد انتقل من المنزل قبل سكناهم وقد سمع أنه سكن فى شارع كذا المجاور بعد أن تزوج فى الشهر الماضى .

وقع الخبر على أمينة كصاعقة نزلت عليها فزلزلت كيانها ولكنها ذهبت إلى عنوان زوجها الجديد يعذبها الشك ويحدوها الأمل فى تكذيب هذا الافتراء الشنيع ، ولكن الحقيقة قابلتها هناك بقسوتها المريرة ، فكانت الصدمة هائلة للزوجة الوفية الساذجة التى ليس لها فى الحياة إلا رجلها الغادر ، وعادت منقلبة النفس بآلام الفشل إلى حيث لا تعلم لها طريقا بينما كلمات منافستها ترن فى أذنها كالحراب السامة ، وتلك الوريقة البيضاء نظير الفراق الأبدى التى أعطاها إياها الخادم تهتز فى يدها المضطربة ، ومشت كالضالة فى ميادين الحياة الواسعة ، حتى انتهى بها المطاف فى مكتب أحد المخدمين الذين كانت على صلة بهم من قبل فحطت رحالها ، وأمكنها أن تلتحق بمنزل أحد الموسرين كمرضعة لطفلهم الصغير .

أما عبدالعظيم فانه ما كاد ينضم إلى هذه الفئة حتى تملكه الغرور وصار يرد طلبات المعجبين به بتأفف وكبرياء، ويشترط شروطا تعسفية مع متعهدى حفلاته، ثم إن زوجته بدأت تنصرف عنه بعد غشيانها المجتمع، بل صارت تحقر من شأنه وتذكره بوضاعة أصله، وكان المطرب المسكين يروض نفسه على الاحتمال، حتى ناء بكلكله ونفر من الحياة المنزلية، فقذف بنفسه بين أصدقاء السوء يقضى الليالى بين المجون والعربدة حتى تعود على قضاء كل أوقاته فى الخارج متبعا هؤلاء الأصدقاء فى عاداتهم بازا إياهم فيما يتعاطون من سموم المخدرات حتى صار فى دنيا الاستهتار عضوا كبيرا بارزا .

وتمالفت المكيفات والسهر الطويل على إفساد صوته الساحر، وأراد القدر أن يسترد من الشاب الناكر للجميل هبته العظيمة ، وأن يتركه يتخبط فى ظلمات طغيانه وافترائه ، فما لبث عبدالعظيم أن شعر بحنجرته الفضية يعلوها الصدأ وأوتار صوته الرخيم تتقطع واحدا فواحدا ، فما من حفلة ذهب لإحيائها إلا وشعر ببوادر الفشل تكال لمجهوداته الضائعة، وما من آهة منه كانت تأخذ فيما مضى بمجامع الألباب إلا وتصحبها حشرجة وتتابعها خشخشة تتردد على أثرها صيحات السخرية وكلمات الاستهزاء وضحكات الشامتين المصحوبة بلاذع النكات وقارص المعانى والأقوال .

وكان هذا الشقاء الجديد يتضاءل أمام عينيه إلى جانب ما يلاقيه من أقوال الزوجة المستهترة وسخريتها الدائمة وضجيجها المستمر مما جعله يتمنى الموت على حياة تنذر بالذل والهوان. وتمادى فى تعاطى المكيفات مستعينا بها على نسيان آلامه وأحزانه ، ولم تخل عليه المكيفات بصداقتها حتى أصبح مدمنا لا يرى إلا بين الكأس والنارجيله ، فساءت صحته وسدت أبواب الرزق فى وجهه ، وانفض أصدقاء السوء من حوله ، كما قلت موارده وضاقت ذات يده ، ولم تجد الزوجة بدا من الطلاق بعد أن ضاعت آمالها فى المطرب الكبير . وهكذا أصبح وحيدا إلا من فقره وشقائه .

وتصادف أن دعى لإحياء حفلة زفاف ، فانتعش أمله من جديد، وقضى اليوم السابق للحفلة فى التأهب والاستعداد وتعاطى المشروبات الساخنة والنوم الطويل ، ولما قاربت ساعة المحدودة للغناء ذهب إلى الحفلة مصطحبا معه من وافقه من أفراد فرقته المنحلة ، واهتز قلبه فرحا عندما وقعت عيناه على معالم الزينة وفخامة المكان المعد لغنائه حتى عادت إلى قلبه المحروم بعض الثقة وابتسم كثيرا للجمهور المحتشد فى المكان الكبير وانحنى كثيرا قبل أن يأخذ مكانه من المنصة العالية .

ودنا موعد الغناء ، وطال التصفيق والتهليل ، وعبد العظيم حائر مضطرب لا يدرى بأى أغنية يبدأ ، وأيها أطوع لصوته الضعيف من غيرها ، وأخيرا ابتدأ فى العزف واستمد

من الضعف قوة ليخرج للناس صوتا منكرا متقطع الأنفاس كحشرجة القتيل ، قابله الجمهور بالصمت المخيف برهة ، ثم تعالت همهمة ثم ما لبثت الهمهمة أن صارت لغوا واللغو هياجا وصياحا ، وتوقف الغناء فى حنجرة المطرب المخذول ، بينما علا السباب والزجرة وتدافعت المناكب تبغى الاقتصاص من المطرب المسكين لتعكيره صفوهم وهنائهم ، ورأى عبد العظيم ماينتوونه نحوه فبادر بالهرب يسبقه أفراد فرقته ، ولكن قدمه المرتجفة لم تلبث أن خانته فهوت به إلى الأرض فسقط متخبطا فى إغماء طويل ، تحطمت معه قدمه الصناعية وأحدثت صوتا ألجم القوم فى أماكنهم .

وارتفعت صرخة حادة من إحدى جوانب الصيوان مصدرها امرأة هزيلة ناحلة تخترق صفوفهم وهى تحمل على كتفها طفلا قذرا مطويا على نفسه ، ثم تتجه إلى المنصة حيث ارتمى المطرب البائس وتصيح فيهم : علىّ بماء أيها الناس ، زوجى والد طفلى .

وأخيرا يستفيق عبد العظيم بعد أن تستدر زوجته السابقة عطف المحتشدين فينظر إلى زوجته الوفية أمينة وهى تهطل بالدموع ، فيهتف بفرح ممزوج بالدهشة — أمينة .

— أجل أمينة يازوجى العزيز وسأظل أمينة وفية دائما .

* * *

وفى الشارع المقفر بينما كانت مصابيح الطريق يكاد يخبو ضوؤها ، كان هناك شبحان تدفعهما الأقدار إلى الامام يتوكأ أحدهما على عصى خشبية بيده اليمنى ، ويستند بالأخرى على امرأة نصف محطمة يتوسد صدرها طفل هضيم تاركين خلفهم المدينة بما تحويه من ضجيج وصخب متطلعين إلى غدهم حيث المستقبل المجهول .

سمير

طبعت هذه المجلة بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ١٢ من ذى القعدة سنة ١٣٦٢
(١٠ من نوفبر سنة ١٩٤٣)
مدير المطبعة الأميرية

محمد بكرى

٣٥٠٠٠-١٩٤٢-٧٩٥١ المطبعة